محاضرات في علوم القرآن

المحاضرة الثالثة
ظَاهِرَةُ ٱلْوَحْي

تعريف الوحي[1]:

قال مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى:

الوَحْيُ: ما يقعُ به الإشارةُ القائمة مقامَ العِبارة من غير عبارَة، فإنَّ العِبارةَ يجوزُ منها إلى المعنى المقصود بها، ولذا سُمِيّت عِبارةً، بخلاف الإشارة الَّتي هي الوحي فإنها ذاتُ المُشار إليه ... أَلا تَرى أَنَّ الوَحْيَ هو السُّرْعة، ولا سُرْعَة أَسْرَعُ ممّا ذكرنا. فهذا الضَّرب من الكلام يُسمَّى وَحْياً... فالوحي: ما يسرع أَثره من كلام الحق في نفس السّامع، ولا يَعْرف هذا إلا العارِفُون بالشؤون الإلهيَّةِ, فإنَّها عَيْنُ الوحي الإلهيّ في العالَم وهم لا يشعرون. فافْهَم.

وقد يكون الوَحْيُ إسراع الروح الإلهيّ بالإيمان بما يقع به الإخبار, والمفطور عليه كلُّ شيء ممّا لا كَسْبَ فيه من الوحي أَيضاً، كالمولود يَلْتَقِمُ ثَدْيَ أُمّه، ذلك من أَثر الوحي الإلهيّ إليه كما قال: [وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ][الواقعة: 85]. [وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ] [البقرة: 154]. وقال تعالى: [وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ] [النحل: 68]. فلولا أَنَّها فَهِمَت من الله وَحْيَه لما صَدَر منها ما صَدَر، ولهذا لا تُتَصورّ معه المخالفةُ إذا كان الكلامُ وَحْياً، فإن سلطانَه أَقوَى من أَن يُقاوَم، [وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ] [القصص : 7]. ولذا فَعَلَت ولم تخالِف، والحالة تُؤذن بالهَلاك ولم تُخالِف ولا تَرَدَّدت، ولا حَكَمت عليها البَشَرِيَّة بأَن هذا من أَخطر الأَشياءِ، فدلَّ على أَنَّ الوحيَ أَقْوَى سلطاناً في نفس المُوحَى إليه من طبْعه الذي هو عين نَفْسِه، قال تعالى: [وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ] [ق : 16].

قال أَبو القاسم الأصفهاني: الوَحْيُ: الإشارَةُ السَّرِيعة، ولِتَضَمُّن السُّرْعَة قيل: أَمرٌ وَحيٌّ، وذلك يكونُ بالكلام على سَبيل الرمْزِ أَو التَعْرِيض. وقد يكون بصَوْت مُجَرَّد عن التركيب، وبإشارةٍ ببعضِ الجوارح وبالكِتابة، وقد حُمِلَ على كل

[1] ـ انظر: بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز, أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى.

ذلك قولُهُ تعالى: [فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً] [مريم : 11]. فقد قيل: رَمَزَ, وقيل: أَشارَ، وقيل: كَتَبَ. وحُمِل على هذه الوُجوه أَيضاً قولُه تعالى: [يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً] [الأنعام : 112]، وقوله: [وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ] [الأنعام : 121]، فذلك بالوَسْواس المشار إليه بقوله: [مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ] [الناس: 4]. وبقوله ρ : " إنَّ للشَّيْطان لَمَّةً ". الحديث[1].

ويُقالُ للكلمة الإلهيّةِ الَّتي تُلْقَى إلى أَنْبيائه وأَوْلِيائه وَحْيٌ، وذلك أَضْرُبٌ حَسْبَ ما دلَّ عليه قولُه تعالى: [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ] [الشورى: 51]. وذلك إمّا برَسُولٍ مشاهَدٍ, تُرَى ذاتُه, ويُسْمَعُ كلامُه, كتَبْليغ جبريلَ υ للنبيّ ρ في صُورةٍ مُعَيَّنة، وإمّا بسَماع كلامٍ من غير مُعايَنَةٍ, كسَماع مُوسَى عليه السّلامَ كلامَ الله تعالى، وإمّا بإلقاءٍ في الرُّوْع كما ذَكَرَ ρ: " إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعِي"[2]، وإمّا بإلْهامٍ نحو قوله تعالى: [وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ] [القصص : 7]، وإمَّا بتَسْخِير, نحو قوله تعالى: [وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ] [النحل : 68]، وإمّا بمَنامٍ كما قال ρ: " لم يَبْقَ من النُبُوَّة إلاَّ المُبشِّرات "[3]. فالإلهام والتَّسخير والمَنام دلَّ عليه قوله تعالى: [إِلاَّ وَحْياً] ، وسَماعُ الكلام من غير مُعَاينة دلَّ عليه: [مِن وَرَاءِ حِجَابٍ]، وتَبْليغُ جبريل υ في صورة معيّنة دلَّ عليه[أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ]. وقوله تعالى: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ] [الأنعام: 93]، فذلك ذمّ لمن يدَّعِي شيئاً من أَنواع ما ذكرنا من الوَحْي، أَيّ نوعٍ ادَّعاه من غير أَنْ حَصَلَ له.

وقوله: [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ] [الأنبياء : 25]، فهذا الوَحْيُ هو عامٌّ في جميع أَنواعِه، وذلك أَنَّ معرفةَ وَحْدانيّةِ الله تعالى، ومعرفةَ وُجوب عبادتِه ليست مقصورةً على الوَحْيِ المختصّ بأُولِي العَزْم من الرّسل, بل ذلك يُعْرف بالعقل والإلهام، كما يعرف بالسّمع، فإذاً القصدُ من الآية تنبيهٌ أَنَّه من

---

[1] ـ حديث ضعيف, رواه الترمذي والنسائي, وغيرهما, من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ρ : إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ, وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً, فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ, فَلْيَحْمَدِ اللهَ, وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ] الآيَةَ.

[2] ـ حديث صحيح, ينظر: السلسلة الصحيحة.

[3] ـ رواه البخاري,وغيره, من حديث أبي هريرة τ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ρ يَقُولُ : لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلاَّ الْمُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ قَالَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ.

المُحالِ أَن يكون رسولٌ لا يَعرِف وَحْدانيّة الله تعالى ووُجوبَ عبادتهِ.

وقوله: [وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ] [المائدة : 111]، فذلك وَحْيٌ بوَساطة عيسى υ.

وقوله: [وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ] [الأنبياء : 73]، فذلك وَحْيٌ إلى الأُمم بوَساطة الأَنبياءِ عليهم السّلام.

ومن الوَحْي المختصّ بالنبيّ υ: [اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ] [الأنعام : 106].

وقوله: [وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ] [يونس : 87]. فوحْيُه إلى موسَى υ بِوسَاطة جبريل υ، وإلى هارون υ بوَساطة مُوسَى υ.

وقولُه: [وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا] [فصلت : 12]. فإن كان الوَحْيُ إلى أَهل السماءِ فقط, فُالمُوحَى إليه مَحْذوفٌ ذِكْره, كأَنَّه قال: (أَوْحَى إلى الملائكة)، لأَنَّ أَهل السّماءِ هم الملائكة، ويكون كقوله: [إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ]، وإن كان المُوحَى إليه هي السَّماوَات, فذلك تسخيرٌ عند من يجعل السّماءَ غير حَيٍّ، ونُطْقٌ عند من يجعله حَيّاً.

وقوله: [بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا] [الزلزلة: 5], قريبٌ من الأَوّل.

وقوله: [وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ] [طه : 114], فحَثٌّ له على التثبتِ في السّماع، وعلى تَرْك الاستِعْجال في تَلَقّيه وتَلَقُّنه.

وقال الزرقاني في مناهل العرفان[1]:

أما الوحي فمعناه في لسان الشرع: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر.

ويكون على أنواع شتى:

- منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه, كما كلم الله موسى تكليما.
- ومنه ما يكون إلهاما يقذفه الله في قلب مصطفاه, على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ولا يجد فيه شكا.
- ومنه ما يكون مناما صادقا, يجيء في تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تبلجه وسطوعه.
- ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل υ, وهو ملك كريم, ذو قوة,

[1] ـ مناهل العرفان في علوم القرآن, محمد عبد العظيم الزرقاني, مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه, الطبعة: الطبعة الثالثة, (65/1).

عند ذي العرش مكين, مطاع ثم أمين. وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها. ووحي القرآن كله من هذا القبيل, وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي, قال الله تعالى في سورة الشعراء: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ].

ثم إن ملك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى:

- فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية.
- وتارة يظهر في صورة إنسان, يراه الحاضرون ويستمعون إليه.
- وتارة يهبط على الرسول خفية, فلا يرى, ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة, فيغط غطيط النائم, ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء, وما هي في شيء من الغشية والإغماء, إن هي إلا استغراق في لقاء الملك الروحاني, وانخلاع عن حالته البشرية العادية, فيؤثر ذلك على الجسم, فيغط, ويثقل ثقلا شديدا, قد يتصبب منه الجبين عرقا في اليوم الشديد البرد. وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه, وذلك أشد أنواعه. وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوي النحل, لكنهم لا يفقهون كلاما ولا يفقهون حديثا. أما هو صلوات الله وسلامه عليه فإنه يسمع, ويعي ما يوحى إليه, ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء, ومن غير شك ولا ارتياب, فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أوحي إليه حاضرا في ذاكرته, منتقشا في حافظته, كأنما كتب في قلبه كتابة.

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرة في الكتاب والسنة, منها ما قصصنا عليك في تنزلات القرآن ومنها قوله تعالى: [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى _ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى] [النجم : 3 – 4].

ومنها الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه, عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ τ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ρ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: " أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ: " قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ

الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا "[1].

[1] - رواه البخاري, (حديث 2).